

الكتاب العربي في سوريا

بقلم هينريش الكيل في

سفير الجمهورية الفيدرالية لبرلين

النتاج الطباعي ، انهم يلاحظون ان الكتاب العربي ، على طول الطريق التي مضى فيها في البلاد السورية ، لم يكن قط هذا الاثر المادي الذي يتظاهر على اخراج مؤلف وناشر ، ويصطلح عليه كاتب وطابع ، ويعمل فيه محقق وتاجر . وانما كان منذ بدايته الاولى ، هذه الظاهرة الاجتماعية التي تمسح عن اتجاه ، وتسمى الى فكرة ، وتصنع من امامها هدفا ، العامل المادي فيه اضعف عناصره وابعدا .

ولقد كانت هذه الظاهرة الاجتماعية ، اعنى هذا الكتاب ، تحمل في الغالب كل ما يضطرم في المجتمع الجديد في سورية ، في كل الفترات المتسلسلة من تاريخ الطباعة . كانت تعبر عن اتجاهاته ، وتمثل مطامحه ، وكانت تعكس تفكير اصحابه ، وتنبئ عن اتجاهاتهم نحو القديم او نحو الجديد ، او نحو مزج القديم والجديد . كانت تجميعا لكل الذي يضطرب فيه هذا المجتمع ، افرادا وجماعات ، وكانت تتويجا لكل هذه المسارب التي تمضي فيها الحياة الاجتماعية في الثقافة والاقتصاد ، في العقيدة والمثل الاعلى ، في النهضة واكتساح العوائق ، في رعاية الماضي وفي التطلع الى المستقبل ، في النظر الى هذا الوجه او ذاك من اوجه الحياة المختلفة العنصرية التي لا تكاد تحصى .

وعلى اساس من هذه الحقيقة الاولى في حياة الكتاب العربي السوري ، أي على اساس من انه ظاهرة اجتماعية ، استطاعت ان تمثل بأمانة ودقة كل اهتمامات

الكتاب العربي في سورية ، والحديث عنه ، كظاهرة من الظواهر الثقافية ، وعلامة من علاماتها ، حديث متشعب طويل ، شأنه في ذلك شأن الكتاب العربي في أكثر البلاد العربية ، منذ اخذت الطباعة طريقها الى المشرق العربي في نطاقها الضيق ، حتى بلغت مبلغها اليوم ، من انتشار واسع ، ونشاط دائم ، وعمل لا يكاد ينقطع في فترة من فترات النهار أو الليل .

وليس من حق محاضرة موجزة كهذه المحاضرة ، تهدف الى التعريف القريب بالكتاب العربي في سورية ، ان تمضي بعيدا في تتبع هذا الكتاب منذ نشأته ، ولا ان تحرص على الوقوف عند نماذج الاولى ، ولا ان تسلك وجه التاريخ الدقيق لكل مرحلة من مراحلها . وحسب هذا اللقاء ، ان يضع المرء امام الكتاب العربي في سورية ، في أبرز اتجاهاته وأظهر معالمه ولامحه .

ولهذا ، لن يكون من هدفي هذه الامسية ، ان أحاضر بمقدار ما هو ان اتحدث . ولن يكون كذلك من خطتي ان أؤكد على الجانب التاريخي ، وان أتتبع المراحل المتسلسلة ، وان أنكر السنين والارقام ، وأن أسرد قوائم مرتبة على اساس العلوم ، او مصنفة على اساس الحروف . لن يكون هدفي ذلك ، بمقدار ما يكون من خطتي ان أنظر هذه النظرة الجامعة ، التي تحاول ان تلم كل هذا النتاج الطباعي في سورية ، وان تجمعها حول بعض الاتجاهات أو بعض الخطوط .

x x x

ولعل ابرز ما يرتسم في ذهن الذين يدرسون هذا

المجتمع العربي في سورية ومطامحه ، فاننا نستطيع أن ننظر في الكتاب العربي في خطوطه الاربعة الكبرى :

- الكتاب العربي الحر .

- والكتاب العربي المجعي ، أي الذي تولاه المجمع العلمي العربي .

- والكتاب العربي الجامعي ، أي الذي تولته الجامعة السورية .

- والكتاب العربي في وزارة الثقافة والارشاد القومي ، منذ أسست هذه الوزارة في الاعوام الاخيرة .

x x x

لقد كانت الثمرات الاولى للطباعة العربية في سورية عملا حرا ، اذا نحن استثنينا المنشورات الرسمية أو ما في حكمها مما كان يصدر عن مطبعة الحكومة . ذلك إن بعض المطابع في دمشق وحلب - بوجه خاص - هي التي كانت تجمع قواها حول الكتاب العربي ، طباعة ونشرا ، وقد تظاهر على ذلك قوتان أساسيتان :

اولهما قوة اصحاب المكتبات والمطابع .

والاخرى قوة العلماء الذين أخذوا ينصرفون الى التأليف والتحقيق . ولم تكن هاتان القوتان متباعدتين ، ولم تكن احدهما غريبة عن الاخرى . كانتا متكاملتين احدهما الى جانب الاخرى . وكان هنالك هذه الظاهرة التي نلمحها بوضوح ، وهي ان الناشر أو صاحب المطبعة لم يكن بعيدا عن الحياة العلمية - بمفهومها آنذاك - وانما كان في غالب الامر ، قريبا منها ، أو متصلا بها . كان طالبا للعلم ، أو على صلة بالعلماء ، أو نصيب من ثقافة ، يتيح له الا ينظر الى الكتاب على أنه مشروع تجاري صرف . انما كان ينظر الى الكتاب على أنه هذا الشيء المتميز . وقد يشارك في اختياره ، وقد يكون له رأي فيه ، ويعين المؤلف على بعض عمله في انتقاء المراجع والتصحيح والتدقيق . كان الطابع أو الناشر ، بتعبير آخر ، وراقا ، على حد ما يقول علماؤنا في ترجمة بعض العلماء أو المتأبين . كان وراقا يمارس العلم تحصيليا وكسبا .

وتفسير ذلك ان الكثرة من الناس الذين يقومون ببعض المهن المتميزة - ان صح هذا الوصف - كانوا عنتنا - كما كانوا في اكثر بلادنا العربية - ولهم دائما هذه المشاركة في الثقافة : يقرأون في بعض المدارس أو

على بعض الشيوخ ، ثم اذا انخرطوا في الحياة العامة ، لم ينسلخوا عن المطالعة والعلم ، وانما كانوا يلاحقون ذلك على أساس من الاتصال المستمر بشيخ يتابعون عليه بعض القراءات ، أو حلقة يتذاكرون فيها بعض الكتب ، أو اجتماع يتدارسون فيه بعض المصنفات . انهم لم يكونوا ينقطعون عن المعرفة وعن التزود منها بحال من الاحوال ، في سن ما من الاسنان . لأنهم كانوا يأخذون دائما بالحديث الشريف: اطلبوا العلم من المهد الى اللحد .

وهكذا التقى صاحب المطبعة وصاحب المكتبة وصاحب القلم . وبنات تتجمع الاحرف في صفحات ، والصفحات في ملازم . وتدور الآلات الطابعة ، فتخرج للناس بعض الكتب التي سترون في المعرض نماذج قليلة منها .

هذه الكتب التي كانت ثمرة الاختيار الحر يمكن ان نلحظ فيها نوعين اثنين :

- احدهما بعض الكتب التعليمية ، أي التي كانت تستخدم في التعليم ، ما كان منها للتدريس الحر في حلقات المساجد أو المدارس الاهلية ، وما كان منها للمدارس الرسمية .

- والآخر هو بعض الكتب الثقافية التي كانت تهدف الى اشاعة الثقافة أو اغناء المعرفة ، سواء ما كان من هذه الكتب مؤلفا أو ما كان محققا .

وحين نرصد هذه الطريق ، نستطيع أن نقرأ بعض الاسماء ، وأن نذكر بعض المكتبات ، وأن نقف عند بعض المؤلفين والناشرين والطابعين . ولكننا لن نستطيع ان نستقصي ذلك الآن . ومع ذلك ، فإنه يبقى في اذهاننا نحن نتحدث عن الكتاب الحر ، اسماء عدد من المكتبات الناشرة ، كالمكتبة العربية ، والمطبعة العلمية ، والمكتبة الهاشمية ، ودار اليقظة العربية ، ودار الفكر ، وغيرها من المكتبات الناشرة الكبيرة ، التي غنت ميدان المعرفة بامهات الكتب العلمية الدينية والادبية والتاريخية ، تاليفا وتحقيقا .

ولو استعرضنا اسماء الكتب والمؤلفين ، لاحظنا ان هذا النتاج أشبه ما يكون بالنتاج الموجه الذي ألزم نفسه بمسلك معين واخلق محددة. إذ انه لم يكن يرغب في أن يتخطى دائرة الحياة العربية السليمة والتأليف الرصين الماقل ، والتراث القديم الثمين . ان هذا الالتزام

النتاج الغزير في كفه ، على مثل ما انتقده الناقدون ، من حاجته الى الاتقان والصقل والتشذيب .

وعلى اطراف هذه الحركة من الكتاب الموجه أو المترجم ، كان هناك ، في دار اليقظة العربية ، ومكتبة اطلس ، ودار الفكر وغيرهما ، مجموعة كبيرة من الكتب المؤلفة ، في مختلف ابواب العلم والمعرفة ، وبخاصة ما يتعلق بانماء الشعور القومي ، وارساء القواعد لمجتمع ناهض جديد ، وتوضيح الاصول التاريخية والدينية والاجتماعية والاخلاقية والسياسية ، للأمة العربية ، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فانكب المؤلفون على تلك الاصول ، يتدارسونها في عمق وأناة ، ويشيدون البناء الراسخ ، حتى لا تبدو فيه ثغرة ، ولا يظهر عليه تصدع .

وهكذا أخرجت لنا تلك الدور مجموعة كبيرة من هذه الكتب ، نذكر منها : مشاكل العالم العربي ، والعرب والعروبة ، وعصر النبي وبيئته ، ومأساة فلسطين ، وجميعها لمحمد عزة دروزة - والأمة العربية ، ومشاكلنا القومية ، والبعقربة العربية وجميعها لزكي الارسوزي - والوطن العربي لعزة النص - وأوراس لاحمد عبد المعطي حجازي - والاسس الثورية للقومية العربية لاحمد الشيباني - وعمان الثورة لابراهيم الحارثي - ومأساة فلسطين لصالح الاشر - والأمة العربية في معركة تحقيق الذات لمحمد المبارك .

ولكن الكتاب الحر لم يتابع طريقه بعد ذلك ، على نحو متصل العطاء غزير النتاج ، ذلك ان مؤسسات أخرى تشرف عليها الدولة ، كانت تأخذ طريقها الى النشأة والنمو ، لتتنزع زمام المبادرة ، ولتحاول أن تخطو بالكتاب خطوات أخرى في اتجاهات جديدة . وكان ان قامت وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ترعى الكتاب وتحضن الكتاب ، وتيسر له سبل الطبع والنشر والتوزيع ، متحملة انغرم والغنم ، وستحدث في هذا الشأن ، بعد أن نمر بالمجمع والجامعة .

× × ×

أما المجمع العلمي العربي ، فهو اكرم المؤسسات العلمية في سورية ، وارسخها واحفلها بالعمل انصامت والمجد الدائب والكفاح المستمر . ان موقعه في المدرسة العادبة بين ظهراني المسجد الأموي العظيم ، اضخم مآثر الاسلام في بلاد الشام ، والطريق الضيقة الطويلة التي تسوقنا اليه ، والتي تعبق برائحة التاريخ ، والبناء

لم يكن ايحاء ولا فريضة أو ضريبة ، ولكنه كان احساسا داخليا عميقا بقيمة الكتاب في تكوين الحياة وفي تسديد العقول وفي رشاد الناس ، والتأبي عن أن يكون مطية لتسلية عابرة أو سبيلا لوقت ضائع . ان أولئك الذين كانوا ينهضون بالكتاب العربي ، ما كانوا ينظرون اليه الا من اكرم الزوايا ، ومن احفلها بالخيز والخصب والفائدة ، ومن أشدها تقريبا للقاريء من تراثه ، من ماضيه ، ومن مستقبل لا ينفصم عن هذا الماضي ولا يعاديه .

ومن المؤكد انه كان هناك الى جانب ذلك ، نتاج طباعي آخر ، يتجه الى التسلية والمتعة باكثر مما يتجه الى الفائدة والمعرفة . وربما وجدتم في العروضات شيئا منه . ولكنه كان كذلك ، موصول الاسباب بالحياة العربية نفسها ، باصولها وتقاليدها ، وفروسيته وبطولاتها ، وفي دعم هذه التقاليد واثارة هذه الفروسية . ومن هنا نجد ان هناك - الى جانب الذي قدمت الحديث عنه - سلسلة من الكتب القصصية القديمة : قصة عنتره ، وسيف بن ذي يزن ، وبني هلال ، والملك الظاهر ببيبرس ، وما اليها ، تطبع هنا وهناك ، الى جانب قصص محلية أخرى ، وتتميز كلها - هذه وتلك - بانها أقرب الى روح العامة من الناس ، والى اغناء هذه الروح وتغذيتها .

ولقد ظل الكتاب العربي الحر يدرج في هذه السبيل الرصينة التي حننتم عنها ، حتى كانت هنالك حركة أخرى أرادت أن تخرج بالكتاب العربي ، من نطاق التأليف والتحقيق والتراث ، الى نطاق النقل والترجمة . وفي هذا الاتجاه ، نجد قائمة طويلة بمطبوعات دار من دور النشر في دمشق ، هي دار اليقظة . فقد التف حول هذه الدار نفر من اصحاب الثقافات الجديدة ، ممن يحرصون على اشاعة بعض الآثار الادبية العالمية ونقلها الى العربية . التقى هؤلاء ، وهم نور ميول متقاربة في الحياة والعقيدة والنظام والفكر ، فدفعوا الى تلك الدار بطائفة من الترجمات : لمكسيم جوركي - وتولستوي - وتشيفخوف - وجي ده موباسان - واهرنبرغ - وعشرات غيرهم من مبدعي روائع الاداب الروسية والفرنسية والالمانية والانجليزية . وكان من نتيجة ذلك ، ان انتقلت الى اللغة العربية عشرات عديدة من الكتب المنتجة من عيون الادب الغربي ، قديمة وحديثة .

ومن المؤكد ان هذه الترجمات أو اكثرها ، كانت في حاجة ماسة الى تخمير ونضج . ولكن الوقت ، فيما يبدو ، كان يلهب الذين وراء هذه المشاريع . فكان هذا

الحجري الفخم النبي يأخذ بلب المناظر اليه - ان هذا الموقع ، بهذا التفرد ، هو تعبير كذلك عن تفرد هذا المجمع برسالته ، وانصرافه اليها وانكبابه عليها والتزامه بأمانته الثقيلة .

وليس بين مثقفي الوطن العربي أو العالم الاسلامي ، ولا في دوائر الدراسات الاستشرافية في أوروبا ، من يجهل أمر المجمع . انه أقدم مجامعنا العلمية في الوطن العربي كله . ولقد كان الثمرة اليانعة الاولى من ثمرات الحياة العربية المستقلة في سورية ، منذ ان نشأت الدولة العربية السورية الاولى في اعقاب الحرب العالمية الاولى في عام 1918 . وقد واجهت الدولة ، فيما واجهت من الصعوبات ، قضية اللغة العربية ، ذلك لأن اللغة التركية كانت هي اللغة الرسمية في البلاد ، ولان الموظفين الاتراك كانوا يتولون معظم رئاسات الدوائر ، بل ان الموظفين العرب كانوا يجهلون الانشاء العربي ، ويعبرون عن مصطلحات الدواوين بالتركية . فكان على الحكومة السورية ان تغير هذه الحالة ، وتحول اللغة الرسمية من التركية الى العربية في جميع الدوائر والمدارس . وقد تم ذلك بسرعة فائقة . فاستحدثت الحكومة دروسا خاصة بالموظفين تستهدف تعليم الانشاء العربي ، وأخذ عدد غير قليل من الابداء والموظفين يراجعون الكتب العربية القديمة والحديثة ، بغية ايجاد المصطلحات وتقرير أفضح الاساليب التي تليق بحكومة عربية حديثة . وتألفت لهذا الغرض ، لجان عديدة سعت وراء تنسيق هذه الجهود وتججيل ثمراتها . وأصبحت الدولة السورية بذلك تستحق اسم الدولة العربية بصورة فعلية .

وعلى اثر هذه الحاجة العاسة الى مؤسسة تكون مرجعا للدولة والناس ، في شؤون لغة قرآنهم ، ولد المجمع العلمي العربي في عام 1919 ، ليسعى الى غرض سام هو اصلاح اللغة العربية ، بعد فساد مقوماتها وذبول نضارة الحياة فيها خلال عصور طويلة من الظلام والانحطاط . ولهذا فقد نصب المجمع نفسه قيما على شؤونها ، وأصبح بمثابة الرقيب ، سواء أكان ذلك في دوائر الحكومة ومدارسها ام في ميدان الثقافة الشعبية . واتخذ بشأن ذلك قرارا في عام 1919 جاء فيه :

« لما كانت الحكومات المختلفة قد تعاقبت على هذه البلاد بعد الفتح العربي ، وغيرت كثيرا من الاوضاع التي اصطلح عليها كتاب الدواوين ، وشوهت محاسنها ، ولاسيما في عهد دول التتر والاتراك ، مست الحاجة الى

تجديد الاوضاع الاولى ، وتعريب الاخرى منها ، ووضع الفاظ جديدة لمعان لم تكن قبلا ، والغاء الفاظ لا توجد اليوم . فاجلنا النظر في كثير من كتب الخطط والاحكام السلطانية والدواوين والترسل والوثائق وما شاكلها ، أهمها : كتاب الحراج لابي يوسف وقدامة بن جعفر ، وكتب الفتح وأشباهاها ، مثل مقدمة ابن خلدون وبعض النواريخ المشهورة ، وكتاب الاحكام السلطانية للماوردي ولابي يعلى الحنبلي ، وسلوك المالك لابن ابي الربيع ، وقوانين الدواوين لابن ممتي ، وكنز الكتاب لكشاجم الرهلي ، والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ، ومعالم الكتابة لابن شيث القرشي ، وكتاب صبح الاعشى للقلقشندي ، التي كثير من اشياء هذه الكتب من مطبوعة ومخطوطة ، معتمدة عند ارباب اللغة والتاريخ . وبعضها ، ان لم نقل اكثرها ، من النوادر المحفوظة في بعض المكاتب .

ويسعد ان اخترنا من هذه الالفاظ ما رأيناه من حاجات دوائرنا اليوم ، أخذنا مصطلحات الدوائر الملكية والعسكرية ، وبدانا في اختيار ما يناسبها ، ووضع ما لم نجده ، أو تغييره لتغير مفاده اليوم . فاخترنا لها هذه الاوضاع بعد تمحيصها والمذاكرة فيها ، راجين ان يعم استعمال هذه المصطلحات العربية الفصيحة احياء للغة العربية ، ورجوعا بها الى نضرتها الاولى .

وهكذا وجد المجمع ، في عام 1919 ، المجال أمامه مفتوحا ليعمل وينتج ويصلح . لقد كانت الدولة بجميع مؤسساتها ودوايرها ومدارسها ، ميدانا رحبا له . وكانت المؤسسات الأهلية ، الصحف والنوادي والمنظمات والجمعيات ، حقلًا فسيحا يزرع فيه البذور الصالحة والزهرة اليانعة . وكان من نتيجة ذلك ، ان ارتقت لغة دوائر الحكومة السورية منذ ذلك الزمن ، وعدت - يومذاك - اصلح من اشباهاها في سائر الدول العربية .

أما في المجال التعليمي ، فقد استعان المجمع بالاختصاصيين من جميع الفروع ، فجمع بين قدرة اعضائه اللغوية ، وبين معرفة الاختصاصيين بمفاهيم الالفاظ الفنية . فألف لجنة مشتركة ، كلفها ان تنظر في الفاظ العلوم الطبيعية والرياضية والزراعية ، وغيرها من المواد التعليمية . كما وضع المجمع جملة من المصطلحات للجيش العربي في سورية . وكان لهذه المصطلحات تأثيرها الفعال في نقل التعليم في الجيش وفي المدارس العسكرية من التركية الى العربية . ولما احتل الجيش

الفرنسي سورية في صيف عام 1920 ، نقلت هذه المصطلحات الى العراق ، فكانت نواة للقاموس العسكري الذي وضع بعدئذ للجيش العراقي . وهكذا ، فقد امتدت ظلال المجتمع الوارفة ، حتى شملت مرافق التعليم كلها . فما كان يطبع كتاب مدرسي ، ما لم يوافق المجمع على لغته وعلى موضوعه .

والى جانب هذا الجهد الثمر في شؤون اللغة والمصطلحات ، اسهم المجتمع في بث الثقافة العربية ونشر الثقافة العامة ، فالقى اعضاؤه المحاضرات وعقدوا الندوات ، حتى اُرى مجموع تلك المحاضرات على قرابة اربعمائة محاضرة في مختلف الموضوعات الثقافية ، انتمى المجمع نخبة منها ونشرها على الناس في ثلاث مجلدات كبيرة .

والثقت المجمع الى تراث الاجداد من المخطوطات ، ونقبت في نفائسها ليحققها وينشرها ، حتى اخرج اكثر من خمسين كتابا ورسالة ، من أهمها : ديوان الوليد بن يزيد ، ورسالة الملائكة للعربي ، وتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي ، وكتاب الأشربة لابن قتيبة ، والدارس في تاريخ المدارس للنعمي ، وديوان علي بن الجهم ، وديوان الرواء النمسقي ، وديوان أبي حصينة ، والرسالة الجامعة للمجريطي ، وثلاث مجلدات من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، وجامع التواريخ للقاضي التنوخي ، وجزء من خزينة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الاصفهاني ، وكتاب الابدال ، وكتاب الاضداد ، وكتاب المثني وكلها لابن الطيب اللغوي ، وكتاب النوادر لابن حريش الأعرابي ، واسرار العربية للأنباري ، وأخبار البيهقي لابن بكر الصولي ، وغيرها من الكتب النفيسة المحققة المشروحة .

ونشر المجمع كتبا كثيرة ، منها بعض كتب الاستاذ محمد كرد علي ، والاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ، وبعض كتب اعضائه العاملين والمراسلين ، وكتب نخبة منتقاة من كبار العلماء والمؤرخين والمحققين والادباء والكتاب . كما نشر فهارس مجلته ومجموعة الالفاظ العربية والموضوعة الواردة فيها ، ومعجم المصطلحات الحراجية باللغات العربية والفرنسية والانجليزية لامير مصطفى الشهابي ، وفيه نحو الف مصطلح عرفت تعريفا علميا موجزا .

ومن الاعمال التي اسهم فيها المجمع ، والتي

تتصل بحياة المجتمع ومؤسسات الدولة ، ذلك المعجم العسكري ، الذي اشترك في وضعه رئيس المجمع الامير مصطفى الشهابي وعدد من اعضائه ، اهد الله في عمرهم . وذلك ان الجيشين المصري والسوري ، حينما توحدت مصر وسورية في عام 1958 ، وجد كل منهما لدى الآخر حصيلة كبيرة من الكلمات تختلف عما لديه مبنى واصلا ، فكان كل منهما يتكلم لغة عسكرية ذات الفاظ لم يعتدها الجيش الآخر . وكان لابد لهاتين اللغتين ، فيما اذا تركتا تتعايشان ، من أن تتفاعلا ، لينتهي بهما الامر الى مجموعة من الالفاظ تنتشر حتى تغلب وتنتصر . سوى ان لهذه الطريقة مخاطرها ومساوئها ، وبخاصة أن مراحل التوحيد يجب ان تتم في اوقاتها المحددة ، ولا بد لان تخضع تلك المراحل لمصطلحات واحدة ، وتنتشر مفاهيم العمل العسكري في القيادات والثكنات والوحدات بسرعة ودقة . فنشأت الحاجة الى معجم عسكري جامع مانع ، يفهم كل ما يتعلق بالحياة العسكرية وفنونها وعلومها ، واسلحتها وموادها وتجهيزاتها ، واشخاصها وتشكيلاتها وقياداتها . وكان المعجم العسكري الكندي ، من أعظم المعاجم الحديثة في العالم ، وذلك لأنه يضم المصطلحات العسكرية باللغتين الفرنسية والانجليزية ، لان هاتين اللغتين هما اللغتان الرسميتان في كندا . وقد انتقلت القيادة العامة هذا المعجم ليكون الاساس لمشروع المعجم العربي . فتألفت لجنة برئاسة الامير الشهابي ، وضمت عددا من اعضاء المجمع ونخبة من الضباط . ووزعت هذه اللجنة الاعمال على عدة لجان تضم عشرات الضباط من الاقليمين . ودار دولاب العمل كالحلينة لا تبدأ في لين ولا في نهار ، طوال عامين لم ينقطع العمل فيهما يوما قط . حتى اذا انتهت اللجنة من عملها ، خرجت على الناس بمعجم عسكري هو مفخرة من مفاخر العمل العلمي والقومي معا . فقد كان المعجم في جزاين ، احدهما عربي فرنسي ، والآخر عربي انجليزي ، وفي كل منهما نحو ستين الف مصطلح عسكري .

ويتأبر المجمع على اصدار مجلته التي بلغت من العمر عقدها الخامس ، فلقد تأسست في عام 1921 ، ولا تزال ترمي النور في كل فصل من الفصول الاربعة ، لتنتشر البحوث والدراسات في اللغة العربية وآدابها ومصطلحاتها العلمية ، وعترات الاقلام والاشاعة ، وفي تاريخ العرب وتراث الاجداد من المخطوطات والمخلفات الأثرية ، الى غير ذلك مما له صلة بلساننا وحضارتنا وثقافتنا في القديم والحديث . ويتخلق حول هذه المجلة اعضاء المجمع

وكبار الكتاب العرب والمستشرقين . وأنا كنت لم أتحدث عن المجلات ، ولم يكن لها في المحاضرة نصيب ، فانه لا يجوز أن نمر بالكتاب المجعي دون أن نقف أمام هذه المجلة ، التي غدت عملاً فذاً . ففي صفحاتها دراسات كالكتب القيمة ، وفي مهادها ومن أبحاثها نشأت كتب كشيخة . وانتشارها ومكانتها في الوطن العربي والعالم الإسلامي وفي دوائر الاستشراق ، يجعلان الإشارة إليها في معرض التعريف بالكتاب العربي ، ضرورة لا غنى عنها .

وهكذا ، نرى ان نتاج المجمع الطباعي نتاج ضخم في متداره ، ضخم في قيمته . والناس في استطاع أن يحفظ له هذه السمات المميزة له :

- فقد استطاع ان يؤصل لحركة نشر التراث القديم ، وان يمنحها روحاً جديدة وطرائف علمية حديثة .
- وان ينبش التراث ، ويصفى منه قدراً صالحاً طيباً في اللغة والادب والتاريخ .

- وان يولي الموضوعات اللغوية ، بخاصة ، ككثيراً من اهتمامه في التأليف والتحقيق .

- وان يجعل الوصل بين ماضي الحياة العربية وواقعها وتطلعاتها هدفاً دائماً له . ان كان كل عمل من أعماله تلبية لرغبة من رغبات هذا التطلع البعيد .

ولقد اعطى المجمع العلمي العربي امثلة رائعة ، وظل دائماً مهوى افئدة العلماء العرب والمسلمين في مختلف بقاع الارض ، كما ظل ملتقى انظار المستشرقين .

وكان في سيرته وعمله وصحته ، الانموذج الذي اتجه اليه العرب بعد في تأسيس المجمع اللغوي في القاهرة والمجمع العلمي العراقي في بغداد . وفي وسعنا أن نقول ، ان المجمعين انشطار للمجمع الاول ، وان المجمع الثلاثة - ولعلي اود ان أن أقول : المجمع الاربعة ، باضافة المجمع المغربي المرتقب - نقول : ان هذه المجمع كلها ليست الا الركائز الانسانية في النهضة العربية المعاصرة ، تأصيلاً لها ، وربطاً بماضيها ووعياً لحاضرها ، وتطلعاً الى مستقبلها .

ولست احتاج الى الافاضة في الحديث عن المعجم ، ففي المطبوعات التي سترونها في المعرض نخبة من الكتب الجمعية . وما أظنني كذلك احتاج الى الاطالة ، وبين ظهرانكم أربعة أعضاء عاملين في المجتمع ، وهم الدكتور

امجد الطرابلسي ، والدكتور حكمة هاشم ، والدكتور شكري فيصل ، والدكتور سامي الدهان ، يعيشون بينكم في هذا البلد العربي الطيب ، ويؤدون رسالتهم القومية في نطاق الجامعة . وفي المغرب عضوان مراسلان في المجمع ، هما الاستاذان العالمان الجليلان ، السيد علال الفاسي والسيد عبد الله كنون ، يسهمان مع المجمع في تأدية رسالته ، كخير ما يكون عليه العاملون المخلصون .

وانا انتقلنا الآن الى صورة اخرى من صور الكتاب العربي ، الفينا أنفسنا أمام كفاح عنيد ، يضع أمامه هدفاً سامياً يعمل له دونما كلل ، وفي ثقة لا تعرف التراخي ، وفي عزم موصول الاسباب بالعقيدة . تلك هي صورة الكتاب العربي في الجامعة السورية .

ولعل الحديث عن أوجه من أوجه هذا الكتاب ، وعن نماذج من نماذجه ، ان يكون اقرب الاحاديث الى نفوسكم ، ونحن في حمى جامعة محمد الخامس طيب الله ثراه ، وانتم تتطلعون الى تعريب التعليم ، وتقفون كذلك من هذا التعريب مواقف مختلفة ، حيث يبدأ هذا الخلاف ضئيلاً نحيلاً في نطاق الدراسة الابتدائية ، ثم لا يزال يتضخم مع مراحل التعليم الاخرى حتى يكون اشد استفحالاً في الجامعة .

ولعل قصة الكتاب الجامعي السوري ، ان اضعها بين ايديكم ، ان تكون عنصراً نافعاً جديداً ، يقرب ما بين الآراء المختلفة حول لغة التعليم الجامعي ، ويضرب المثل على تجربة علمية قومية ناجحة ، آتت اطيب الثمرات ، حتى اصبحت قدوة تحتذى .

حين جلا الاثراك عن بلاد الشام ، في نهاية الحرب العالمية الاولى ، كانت سورية على نحو مماثلة تقريباً - مع الاحتفاظ بالاشارة الى الفروق - لما كانت عليه حال المغرب في عام 1956 . ولقد نكرت منذ دقائق ، كيف انه لم يكن هناك موظفون يتقنون العربية ، ولا اطر - على حد التعبير الشائع في المغرب - تنهض بعبء الادارة ، ولا فنيون يمكن ان يسدوا هذا الفراغ السني نشأ عن امرين : عن انسحاب تركية من ناحية ، وعن قيام الدولة العربية الجديدة ، باتجاهاتها ولغتها ومطامحها وآمالها من ناحية اخرى .

ولكن الذين أخذوا على عاتقهم امر تأسيس الدولة آنذاك ، لم يركنوا الى شيء من دعة أو قسوط ، أو شيء من تلبث واصطبار ، بل انطلقوا كعمال بسائين في أرض

نطاق الادارة . ووضع أسس كل البنيان العربي الذي نستظل به اليوم في الحياة الثقافية في سورية .

ومن هذه القاعدة ، انطلقت الجامعة السورية في هذا الموكب الجاد ، تعرب دروسها ومحاضراتها . وكانت آنذاك ، لا تجاوز كلية الحقوق وكلية الطب . واندفع الاطباء ، بوجه خاص ، نحو التراث العربي ينشونه ، فاذا حضروا خطبوا بالعربية ، واذا تكلموا عن المصطلحات وضعوا لها المصطلحات العربية المائلة ، واذا الفوا كتبوا بالعربية . وسرعان ما أعطى الجهد المؤمن الصابر ثمراته . فاذا الجامعة السورية في دراسة الحقوق وفي دراسة الطب وما يتصل به من كيمياء وفيزياء ورياضيات ، لا ينفذ عنها ، أو لا يكاد ، مصطلح لا ترجمة له ، ويبحث لا تاليف فيه ، وفرع من الفروع لا كتب تنشر عنه .

حتى اذا كانت الكليات الجديدة الاخرى : كلية العلوم بفروعها : الفيزياء والكيمياء والرياضيات والجيولوجيا ، وكليات الهندسة والزراعة والفنون ، وكليات الآداب والتربية والشريعة بفروعها الكثيرة المختلفة - كانت كلها تدرس بالعربية ، وتنتج منها الاجيال المتلاحقة من الشباب العرب ، السوريين وغير السوريين ، الذين يملأون اطراف الارض العربية من طنجة الى الخليج . في كل مدرسة أو في كل بلد منهم معلم .

لقد استجاب الكتاب الجامعي العربي الى جميع حاجات الدراسة الجامعية ومتطلباتها ، في الميدانين النظري والعملي ، في ناعة الدرس وفي المخبر ، في غرفة العمليات الجراحية وفي اللعب الرياضي ، في المكتبة وفي النادي . ولم يدع الاساتذة باباً من ابواب المعرفة الا ألفوا وبحثوا فيه . فكان الكتاب الجامعي شاملاً متنوعاً ، باحثاً في الآداب والفلسفة ، والتربية والتعليم ، وفي السياسة والحكم ، والادارة والقضاء والحقوق ، وفي شؤون المال والضرائب والتشريع ، وفي علوم الفقه والتفسير ، والحديث والاصول والشريعة ، وفي التجارة والصناعة ، وفي اللغة والاجتماع ، وفي التاريخ والجغرافيا ، والرياضيات والفيزياء والكيمياء ، وفي الطب والمنطق والاخلاق ، وفي مختلف ألوان الفنون . وما يزال هذا انكتاب الجامعي ، يقدم كل عام جديد ، دراسات وأفكاراً جديدة ، تثبت الدليل ، تلو الدليل ، على ان اللغة العربية ، قادرة قدرة كاملة لا تمييزها نقيصة قط ، على ان تستوعب الحياة كلها ، وتتفاعل مع المجتمعات على اختلاف

قفر ، ينتقل كل شيء فيها ظله . انطلقوا وقد خلفوا وراءهم كل معاني الدعة والاستسلام ، واسكتوا صيحات اليأس والحيرة ، التي كانت تنبعث من زوايا اليائسين الخائرين . وراحوا يبنون في كل جزء في آن واحد . فانشأوا المجمع العلمي العربي الذي تحدثت عنه ، والقوا اليه حركة التعريب والتأليف والترجمة ، والنظر في الكتب المدرسية وفي لغة الدواوين . فانسكب اعضاؤه يعملون في غير ما انقطاع . وكانت القناعة العميقة التي سادت الدولة يومذاك ، والتي لم يخالفها تردد أو يمازجها قلق ، ان الكلمة العربية هي الكلمة التي يجب أن تسود ، وان الحرف العربي هو الحرف الذي يجب أن يعلو . وكان الفرق - فيما أقدر - بين الوضع في سورية آنذاك ، وبين الوضع في المغرب عام 1596 ، يتمثل في ثلاثة أمور :

- اولها : انه لم يكن هناك بقايا من الاتراك تعرقل حركة التعريب .

- وثانيها : انه لم يكن هناك هذا التارجح بين اتجاهين أو عدة اتجاهات .

- وثالثها : ان الذين كانوا قد تحقّفوا بالثقافة التركية ، لم يتعاطفوا مع ثقافتهم التي عاشوها واللغة التي عرفوها ، ولم يجعلوا منها ركيزة لهم أو درأ يستظلون بظله . لقد انخرطوا في الحياة الجديدة ، واقبلوا على العربية اقبالا فيه هذا المعنى الصوفي الاستغراقي . ولذلك ، فقد مضت الحركة في غير تعثر ، ومضت سريعة مثمرة . ومن أين يكون لها هذا التعثر ، ولما نأ لا تكون لها هذه الثمرة ، اذا كان الاتجاه التعريبي لم يقاس مرارة التردد ، واذا كان المثقفون بالتركية ، لغة وثقافة ، قد خلعوا عنهم هذا الرداء ، لينسجوا رداءهم العربي الجديد ، خيطاً خيطاً ، وكلمة كلمة .

والذين واكبوا هذه الفترة ، أو تأملوا فيها ، يعرفون أنه كان على رأس الحركة ، انسان حظه كان من التركية اضعاف حظه من العربية . ولكنه اندفع يتودد حركة التعريب . انسان كانت تمنى تركيا لو خلص وحده لها من كل ارثها الذي خلفته في سورية . هذا الانسان ، هو أحد فلاسفة القومية العربية ، واحد قادتها ، الجندي المعلوم المجهول ، ساطع الحصري ، مد الله في عمره . فقد نفخ من روحه في نطاق التعليم وفي

اشكالها واوضاعها ومفاهيمها ودرجات تطورها .

لقد كانت الاسطورة الدخيلة ، التي تتسائل في خبث وبلاهة : وهل يمكن أن تدرس العلوم العالية باللغة العربية - كانت هذه الاسطورة ، تلفظ انفاسها في سورية، وكانت الجامعة السورية، بمخابرها وحلقاتها وأساتذتها، تكشف عن زيفها ، وترمي بها جثة ممقوتة في الصحراء ، بعيدا عن جنات المعرفة والعلم ، وعن ثمار الجهد والتعب. ولكن الاسطورة، كالاخطبوط الكبير نبي السواعد الطويلة، كانت لا تزال تعيش في بعض أطراف الوطن العربي . أما في المغرب ، فقد كان السؤال بعيدا عن أن يطرح آنذاك أمام العقل والنور ، لان اللغة الغازية كادت تكون متمكنة من كل شيء . فلما بدأت تصفية الاستعمار ، كان لابد من أن يطرح هذا السؤال في المغرب . وكان لابد للغة الغازية ، من أن تقف موقف المتحدي الراض في مكانه ، المدافع عن نفسه . وكان لابد لها من أن تصارع جها حينا ، وسرا احيانا ، فقلم ذيولها في مكان ، لتصد في أمكنة أخرى . وهي لا تزال في كسر وفر ، وأحجام وأقدام ، قبل ان يبلغ بها الامر غايته . وأحسب اننا لسنا في المغرب في حاجة الى أن نطيل ترقب الجواب، أو نعد في عمر النزاع فيه . حسبنا هذه التجربة الرائدة في سورية ، وقد عاشت بكل قوتها وعنفوانها ، وظفرتها وثباتها ، حتى اتخذت طريقها الى جامعات القاهرة والجزائر . وان كان الحق أن مصر كانت أقدم البلاد العربية التي مارست التعليم الجامعي في بعض ميادينه ، باللغة العربية منذ أيام محمد علي الكبير . لقد قلت : اننا في المغرب لا نحتاج ان نطيل في طور التجربة ، طالما ان اقطارا أخرى قد عاشت تلك التجارب ، وأفادت منها ، وبلغت مرحلة يمكن لنا أن نقاربها ونجلوها ونتعرف اليها ، حتى اذا انسنا بها تفاعلنا معها، واخذنا واعطينا، حتى تكون التجربة منا والينا ، وليست غريبة عنا بعيدة عن تفكيرنا .

× × ×

وتبقى امامنا الصفحة الاخيرة من هذا الحديث ، وهي صفحة الكتاب الذي تحتضنه الدولة ، فتؤلف ما بين صاحب القلم وصاحب المطبعة وصاحب السلطة في التوزيع والتعميم. وتقدم لهؤلاء المال والرعاية والدعاية ، لا تنظر الى ربح أو خسارة ، بقدر ما تهدف الى نشر الفائدة ، ونفع الناس ، والدعوة الى المعرفة والصدائة مع الكلمة . والدولة حينما تحتضن الكتاب ، تتقني

الموضوع، وتسعى الى الخير، وترغب عما يضر بالناس، أو يسيء الى اخلاقهم وعاداتهم ، أو يتنافى مع عقائدهم ومفاهيمهم ، وانما تهدف الى اظهار الحق ، والكشف عن الزيف ، والبعد عن الضلال ، والى نشر المعرفة، وتثقيف المواطنين .

وهكذا ولدت وزارة الثقافة والارشاد القومي ، لتسعى الى تعميم المعرفة والثقافة بين الجماهير ، والتعريف بالحضارة العربية ، ونشر رسالتها ، وتوفير الامكانيات لكي تلتقي بالحضارات العالمية الكبرى ، ولتسعى الى توجيه افراد الشعب توجيهها قوميا صحيحا، وتنمية وعيهم القومي وارشادهم الى ما يرفع مستواهم الاجتماعي ، ويقوي روحهم المعنوية وشعورهم بالمسؤولية ، ويحفزهم على التعاون والتضحية ومضاعفة الجهود في خدمة وطنهم وعشيرتهم ، وتيسر لهم سبل الثقافة وتوسع نطاقها وتغنيها بالابتكارات الحديثة ، ولتسعى الى احياء التراث العربي القديم في العلوم والآداب والفنون ، ولتحرص على سلامة اللغة العربية ، وتسهم في فتح الآفاق امامها ، لتتسع للعلوم والفنون والآداب والمخترعات الحديثة ، ولتسعى الوزارة بعد ذلك الى احداث المتاحف الاثرية والتاريخية والفنية والشعبية ، والى تشجيع الفنون والآداب والعلوم ، وتوفير أسباب الحياة والعمل والرفاهية لمحترفيها والعاملين في ميادينها .

ولكي تحقق هذه الوزارة الجديدة اهدافها ، وتبلغ غاياتها ، انشأت معاهد الثقافة الشعبية ، والمراكز الثقافية ومدارس مكافحة الامية ، وعقدت الندوات ، ونظمت المهرجانات ، وأسست الفرق الفنية ، والمسارح، وأقامت المتاحف ، ونشرت وترجمت وحققت مهمات الكتب العربية والاجنبية . وهذا الوجه من أوجه نشاطها هو ما نود التحدث فيه .

فقد صدرت عن هذه الوزارة عدد كبير من الكتب. وسيلاحظ زوار المعرض ، ان هذه الكتب أنواع وتفاير . انها ليست الكتاب القديم ، ولا الكتاب الجديد ، ولا الكتاب المترجم ، ولا الكتاب المؤلف . وانما هي كل ذلك ، علم وأدب ، وتاريخ ووثائق ، وسياسة واجتماع ، وفلسفة وتربية ، وصاروخ وذرة ، ومسرح وقصة ، وشعر ونقط ، تنتظمها سلاسل مختلفات : الثقافة الشعبية ، والآداب الغربي ، والآداب الشرقي ، والآداب الجزائري ، والفكر العالمي ، والعلوم المبسطة ، وبلاينا ،

ورواد التحرر العربي ، والتراث القديم ، والقصص ، والمسرح ، والفنون .

× × ×

تلك هي مجاري الكتاب العربي في سورية : الكتاب الحر ، والكتاب المجمعي ، والكتاب الجامعي ، وكتاب الدولة . قدمتها لكم بالاسلوب الذي ارتضيته . لم يكن أسلوبا احصائيا ولا تاريخيا ولا ابجديا . انه نظرة تحاول ان تجمع اطراف سيرة الكتاب العربي بهذه الاتجاهات الاربعة التي حدثتكم عنها .

ومن الطبيعي ان يكون لكل اتجاه خصائصه ، وان يكون له مذاقه . ولكنني استأذنتكم في ان الاحظ انها كلها ، مشدودة الى مبدأ اساسي ، ذلك هو ان الكتاب عندها ، لا يكون ، ولا يمكن ان يكون ، ولا يحق له ان يكون ، عملا تجاريا صرفا ، في أية مرحلة من مراحلها : في مرحلة التأليف أو الطبع أو البيع . انه أداة كريمة نبيلة من أدوات الفكر والثقافة والمعرفة . انه روح هذا الشعب العربي . انه مصباح الهداية ، ومن هنا استمد اسمه عندها في العريية ، من الاسم الذي اطلقه الله عز وجل في قرآنه المبين ، على الوحي الذي اوصى به الى الانبياء المرسلين . ولذلك يجب ان يظل الكتاب دائما في نطاق هذه القدسية ، لا يتعداها ، ولا تمتد اليه الايدي الملوثة بشيء .

واحسب اننا استطعنا في سورية ، ان نعطي هذا الكتاب قداسته ، وان نحفظ عليه طهره ، وان نحتفظ له بقيمته الفكرية والاجتماعية ، بعيدا عن ان يكون شبكة صيد وفق استقلال .

اننا سعداء بالذي قدمناه . وان كنا ندرك ، ان ما حفلناه قليلا ، واننا يجب ان نضاعف الجهد في هذا السبيل .

× + ×

في نهاية حديثي هذا ، ازجي الشكر جزيلا الى مكتب التعريب ، اذ دعا الى اقامة هذا المعرض الكريم ، لا هدف له فيه ، الا المعرفة والثقافة ، واللقاء ، الاخوي حول اقدس ما يجمع العرب ، ويشد ازر بعضهم الى بعض ، ويقيم بناء وحدتهم حول الكلمة ، نزل بها القرآن وحملها ذلك الفارس العربي الاشم ، حين اطل على الدنيا من فوق كئبان الصحراء ، ليعلي رايتها على هضاب بواتييه ، وعتت ضفاف السند البعيد .

والشكر لكم ، اذ سعيتم الى حمى الجامعة ، في لقاء كريم ، تجشمت فيه العناء . وان كان لي امل اختتم به الحديث ، فهو ان تسعد عيوننا بالكتاب المغربي ، يسمى الينا في عاصمة بني أمية ، فيعيد سيرته الاولى ، يوم كان حاملا مشعل النور ، مسهما في بناء الحضارة والسلام .